الهرمنيوطيقا والنصوص الشرعية

بحث مقدم الى كلية الإمام الأعظم

للمشاركة في مؤتمرها الدولي السابع عشر

والموسوم: **(التكامل المعرفي لعلوم النص مع العلوم الإنسانية)**

إعداد

أ. م. د. معاذ محمد عبيد المرسومي

كلية الإمام الأعظم / الجامعة

قسم الدعوة والفكر/ كركوك

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وجنده.

وبعد؛ فقد دأب علماء المسلمين من عصر التنزيل إلى يومنا هذا بالاجتهاد في معرفة مقصود النصوص الشرعية، وبذلوا في سبيل ذلك الغالي والنفيس، وسلكوا مناهج معروفة، وطرق مألوفة في معرفة معاني الألفاظ، وأتوا العلوم من أبوابها، فكانت نتيجة جهدهم وبذلهم أن تركوا لنا موروثا عظيما من العلوم والطرائق والأصول التي يتوصل بها إلى ضبط عملية فهم النصوص الشرعية، واستنباط أحكامها، وتفسير ألفاظها، ومعرفة مقاصدها، ثم ترجموا كل ذلك بموروث أكبر بما تركوه من أحكام عملية، وتفسير للنصوص الشرعية، تشكلت منه المذاهب الاسلامية في الفقه والتفسير وغيرها بمختلف توجهاتها، والتي لا تخرج بمجملها عن الإطار العام في طريقة فهم النصوص وتفسير الألفاظ ومعرفة الدلالات، وإن الاختلاف الذي وقع بينهم إنما هو في الفهم والاستنباط وهو أمر مستساغ مقبول لاختلاف المدارك والفهوم، ولكنه لم يقع عن اختلاف في الطريق الموصل الى الفهم المطلوب، إلا من شذ فخالفوا تلك الأصول والطرق فأخرجتهم عن طريقة فهم النصوص.

إلا أن هناك وفي بعيد من أراضي المسلمين حدثت جدالات ونقاشات تناولت النص الديني بالتأويل والتفسير، ولكن ليس على الطريقة التقليدية التي عرفها أهل الكتاب؛ وإنما بطريقة فلسفية مؤداها القول بموت المؤلف، وإحلال القارئ مكانه، وفتح الباب على مصراعيه لعبث تأويلي لا ينتهي، والقول بأن لكل زمان ومكان قراءة تخصه تناسب ثقافته وبيئته كي تلبي حاجة الإنسان وتعاصره، فالنص يصنع بعدد قرائه، فليس هناك فهم ثابت ومعنى لا يتعدد، وهكذا في فوضى تنزع من النص المقدس قدسيته ومكانته، وجعله كالنصوص الأدبية تخضع للنقد والتحليل والمراجعة، وهذا ما يعرف بالمنهج الهرمنيوطيقي التأويلي الحديث.

وقد وجدت هذه الدعوى في الغرب صداها في الشرق عند الحداثيين العرب، فنادوا بتطبيقها على القرآن الكريم، وقراءته قراءة هرمنيوطيقية، حاله كحال أي كتاب بشري، محاولة لنزع القداسة عنه، ومن ثَمَّ طمس معانيه التي نزل بها، بحجة صلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان بفهم يناسب ذلك الزمان والمكان، دون الجمود على الفهم وقت التنزيل؛ لاختلاف البيئة والعصر والثقافة والاحتياج، فهم بعدما عجزوا عن تحريف لفظه عمدوا الى تحريف معناه بدعوى باطنية قرمطية مكشوفة خبيثة.

أهمية البحث.

تأتي أهمية البحث من كون نظرية الهرمنيوطيقا هي أحدى الروافد المهمة في مجال نقد الخطاب الديني وتأويله، والذي اعتمد عليه الخطاب العلماني المعاصر كأساس فلسفي عند الكثيرين من نقاد الفكر الديني من المفكرين العرب.

إشكالية البحث.

إشكالية البحث هو معرفة مدى الإفادة من مناهج وآليات المنهج الغربي الحديث في فهم النصوص، وتطبيق تلك المناهج على النصوص الشرعية، وهل تصلح تلك المناهج أن تكون مرادفة لمناهج الفهم الإسلامي المعروفة في تكامل معرفي بين القديم والحديث، وهل يمكن الجمع بينهما في منهج وسطي حديث يواكب ويلبي حاجة الإنسان المعاصر؟.

خطة البحث.

اقتضت طبيعة البحث في أن أجعله في ستة مطالب:

المطلب الأول تعريف الهرمنيوطيقا وبيان أصلها.

المطلب الثاني: ركائز الهرمنيوطيقا.

المطلب الثالث: الهرمنيوطيقا والنص المقدس.

المطلب الرابع: الهرمنيوطيقا والنصوص الأدبية.

المطلب الخامس: الهرمنيوطيقا والتفسير القانوني.

المطلب السادس: تقويم نظرية الهرمنيوطيقا.

ثم ذكرت في نهاية البحث أهم النتائج التي توصلت إليها ثم ذكرت مصادر البحث ومراجعه.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ...

المطلب الأول: تعريف الهرمنيوطيقا وبيان أصلها.

اولا: تعريف الهرمنيوطيقا:

تعريف الهرمنيوطيقا لا يخرج عن كونه فن التأويل، أو علم نظرية التأويل في الفكر الغربي، وقد عرف بتعاريف بحسب الاتجاهات الفكرية والفلسفية والعقائدية، ومنها:

- ((هي المبحث الخاص بدراسة عمليات الفهم، وبخاصة فيما يتعلق بدراسة النصوص))[1].

- ((مجموعة القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني -الكتاب المقدس-))[2].

- وفي الفلسفة هي: ((المبدأ المثالي الذي من خلاله تكون فيه الحقائق الاجتماعية وربما أيضا الحقائق الطبيعية رموزا أو نصوصا، والتي بدورها يجب أن يتم تفسيرها بدلاً من وصفها))[3].

- وفي اللاهوت المسيحي تعرف بأنها: ((فن تأويل وترجمة الكتاب المقدس، وكذلك تشير هذه الكلمة إلى ذلك الجزء من الدراسات اللاهوتيَّة المعني بتأويل النصوص الدينية بطريقة خيالية ورمزية[4]، تبعد عن المعنى الحرفي والسطحي المباشر، وتحاول اكتشاف المعاني الحقيقية والخفية للنصوص المقدسة-وخاصةً الإنجيل)).[5]

ثانيا: بيان أصل كلمة هرمنيوطيقا:

يعود أصل كلمة هرمنيوطيقا إلى الكلمة اليونانية «هرمنويين hermeneuin» بمعنى (يُفسِّر) أو (يُوضح)، وهذا الفعل مشتق معناه من كلمة (هرمنيوس) وهي كلمة مجهولة الأصل وإن كان يُقال إنها تعود إلى الإله هرميس[6] رسول الإله زيوس.[7]

"فاللفظ الافرنجي له علاقة بهرمس الذي هو رسول الله لدى اليونانيين؛ ولهذا كان عليه أن يفهم ويؤول أولا ما يريد الآلهة توصيله الى البشر، ومن هنا فإن التأويل مرادف للهرمنيوطيقا"[8].

---

(١) من النص الى التأويل، بول ريكور ص ٦٠، التأويل الحداثي للتراث، إبراهيم السكران ص ٣١. فهم الفهم عادل مصطفى ص ٢٧.

(٢) إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد ص ١٣.

(٣) الهرمنيوطيقا محمد صلاح الخالدي ط١، سنة ٢٠١٨م.

(٤) الرمزية: نسق من الرموز للدلالة على معان خاصة، أو التعبير عن حقائق ومعتقدات، ومنه الرمزية الفنية والرمزية الأدبية، وكثيرا ما استعمل في الطقوس والتعاليم الدينية. ينظر: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية ص٩٢.

(٥) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري ٨٨/١.

(٦) هرمس هو: اسم (لعطارد أحد الكواكب السيارة) وهو عند اليونانيين رمز للحكمة. ينظر: المعجم الفلسفي، مراد وهبة ص ٧٤١.

(٧) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري ٨٨/١.

(٨) المعجم الفلسفي، مراد وهبة ص ٧٤١.

ثالثا: نشأة المصطلح وتطوره.

إن كلمة تأويل يرجع استخدامها إلى التراث الإغريقي، حيث استخدمها افلاطون وأرسطو وغيرهم، وترتبط هذه الكلمة بتفسير ما يصعب على الإنسان فهمه ويخرج عن طاقته إلى صورة واضحة ومفهومة[١]، ويذكر أن أرسطو هو أول من استخدم مصطلح الهرمنيوطيقا وكان يعني به علم الدلالة[٢].

وقد ارتبط مصطلح الهرمنيوطيقا تاريخيا بالنصوص المقدسة وبالكتابات اللاهوتيَّة، وبإشكالية قراءتها وفهمها، إذ كان فهم الكتاب المقدس يمر عبر الكنيسة في أول الأمر، إلا أنه مع منتصف القرن السادس عشر ومع حركة الإصلاح الديني التي حصلت في أوربا، ومع ضرورة فهم الكتاب المقدس برزت الدعوة الى عدم حصر الفهم بالكنيسة، وإشراك الفرد معها بالفهم، وجعله ملكا مشاعا للجميع؛ لذلك برزت الهرمنيوطيقا كطريقة لفهم النصوص المقدسة وتأويلها، ثم ما لبثت أن توسعت لتشمل كافة العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والنقد الادبي والانثروبولوجي[٣] وفلسفة الجمال والفلكلور[٤]، حتى أن هايدجر[٥] استخدم هذا المصطلح ليشير إلى أن دراسته في طبيعة الوجود الإنساني هي دراسة ميتافيزيقية، (أي: هرمنيوطيقية). فهذه العلوم الهرمنيوطيقية حظيت باهتمام واسع من قبل الفلسفات الحديثة والمعاصرة، وذلك بفضل جهود عدد من الفلاسفة والمفكرين الغربيين أمثال فريدرك شليرماخر[٦]، وفيلهلم ديلتاي[٧]، ومارتن هايدجر، وهانز جورج غادامير[٨]، وجاك دريدا[٩]، وبول ريكور، وغيرهم[١٠].

---

(١) ينظر: فهم الفهم، د. عادل مصطفى، المعجم الفلسفي، مراد وهبة ص ٧٤٢. التأويل د. مصطفى منصور، ص٢٢.

(٢) ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة، د.خالد السيف ص ٧٦.

(٣) الانثروبولوجي: هو العلم الذي يهتم بعلم الإنسان وتحديد مكانته في الكون، وجعله محور البحث الفلسفي. ينظر: موسوعة الفلسفة ٢٣٢/١.

(٤) ينظر: دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ص ٨٨، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد ص ١٣.

(٥) مارتن هايدغر: فيلسوف الماني، ولد سنة ١٨٨٩م وهو المؤسس الحقيقي للوجودية، توفي سنة ١٩٧٦م. ينظر: موسوعة الفلاسفة ٢/ ٥٩٧.

(٦) شلاير ماخر: لاهوتي رومانسي الماني ولد عام (١٧٦٨م) في برسلو درس الفلسفة والتاريخ واللاهوت، ودرّس اللاهوت في جامعات عديدة، ومذهبه متضمن خطابات حول الدين، توفي سنة (١٨٣٤م). ينظر: تاريخ الفلسفة إميل برهييه ٦/ ٢٧٤.

(٧) فيلهم دلتاي: هو فيلسوف الماني ولد سنة ١٨٣٣ حصل على شهادة الدكتوراه ودرَّس في عدد من الجامعات الالمانية، تأثر بفلسفة هيجل وكانت، فأنشأ فلسفة في نقد العقل التاريخي، توفي سنة ١٩١١ ينظر: موسوعة الفلاسفة ٤٧٥/١.

(٨) جادمير: فيلسوف الماني ولد عام (١٩٠٠م)، أستاذ كرسي الفلسفة في جامعة ليبستج الألمانية، تأثر بهايدغر كثيرا حيث كان يشرف عليه في أطروحته للدكتوراه، توفي سنة (٢٠٠٢م)، ينظر: ملحق موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي ص ١٠١؛ نقلا عن ظاهرة التأويل الحديثة ص٥١.

(٩) جاك دريدا: فيلسوف فرنسي، من أصول يهودية، ولد سنة (١٩٣٠م)، نشط في الكتابة في قضايا الفكر والفلسفة، حتى تم اعتبار كتاباته أكثر الكتب رواجا في العالم قراءة وترجمة، توفي سنة (٢٠٠٤م). ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة، ص ١٠٦.

(١٠) ينظر: الهرمنيوطيقا والنفس الديني للعالم، د. عبد الجبار الرفاعي ص ١٠٣

إن الملاحظ على الخطاب العربي المعاصر أنه يتداول ألفاظا ومصطلحات ما يعرف ما بعد الحداثة[1] وهي التأويل والقراءة المعاصرة والتفكيك[2]والهرمنيوطيقا، وإن أكثر هذه الالفاظ استعمالا وتداولا هو مصطلح التأويل؛ كونه من الالفاظ المتداولة في المنظومة الشرعية، ولتخفيف وطأة تغيير معاني النصوص عند جمهور المسلمين مع الأخذ بعين الإعتبار أن نظرية التأويل هي خليط غير متجانس من المناهج والمدارس الغربية كالفرويدية[3] والنتشتوية[4] والوجودية[5] والماركسية[6].

المطلب الثاني: ركائز الهرمنيوطيقا

للهرمنيوطيقا ركائز ثلاث يمكن توضيحا بالأتي:

أ- النص. بناء على النظرية الوجودية، التي بشر بها هايدغر وبث أفكارها جادميرفإنه تم النظر إلى اللغة كحدث وجودي له استقلاله بمجرد انبثاقه عن الإنسان فاللغة تفصح عن نفسها عن طريق الإنسان، وليس الإنسان يفصح عن نفسه عن طريق اللغة، فالنص اللغوي يفصح عن نفسه من دون النظر إلى قصد المؤلف، بل لا عبرة أصلا بقصد المؤلف؛ لأنَّ النص في بنيته الأصلية يملك خصائص ومقومات ديمومة لا تحد، لذلك سيكون تعدد تأويله نابعا من نفسه وليس من مؤثر خارجي.

---

(١) ما بعد الحداثة جاءت كردت فعل على الحداثة ومعطياتها، وما ولدت من حروب عالمية وكوارث إنسانية؛ لذلك دعت إلى أنه ليس هناك ثمة ثابت يحكم المتحول، وليس ثمة عقل يفسر تفسيرا غير متحيز أوجه النشاط الثقافي البشري، ولا وجود لثقافة عالية نخبوية وأخرى دونية جماهيرية، بل كل ما هناك هو تشكيل مستمر لا يمكن تبريره أو تفسيره بالإحالة على أنموج متعال، فإن احتفت الحداثة بالعمق والمعنى فإن ما بعد الحداثة نادت بعدم ثبات المعنى وعدم جوهريته، وحاربت العقل والعقلانية، ودعت الى ضرورة قبول التغير المستمر. ينظر: دليل الناقد الأدبي ٢٢٣ - ٢٢٩.

(٢) وقد اختُلف في ترجمة مصطلح التفكيكية إلى العربية فترجم بالتفكيك والتقويض وترجمها بعضهم إلى التشريح وأصحها الاول وقد بدأ التفكيك منذ نهاية الستينات في القرن العشرين وقد بلغ ذروته في الثمانينات وهو يمثل ما بعد البنيوية ويعد امتداد لها وضدها في الوقت نفسه. ينظر: مناهج النقد الأدبي رؤية إسلامية، ينظر: د. وليد قصاب ص ١٨٨.

. الباحثين. انظر: وليد قصاب، «مناهج النقد الأدبي، رؤية إسلامية»: ١٨٣

(٣) الفرويدية: نسبة الى مؤسسها (سيجموند فرويد) صاحب مدرسة التحليل النفسي القائم على تفسير السلوك الإنساني تفسيرا جنسيا، وتجعل الجنس هو الدافع لكل سلوك، وعدت القيم والعقائد عائقا أمام الاشباع الجنسي. ينظر: الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، إشراف د مانع بن حماد الجهني ٨٢٢/٢.

(٤) النشتوية: نسبة الى مؤسسها نيتشة (ت ١٩٠٠م) أكثر الفلاسفة تأثيرا في القرن العشرين، حيث قامت فلسفته على نقد جذري للدين والاخلاق والفلسفة والعلم والسياسة. ينظر موسوعة الفلسفة ٥٠٩/٢.

(٥) الوجودية: مذهب أدبي فلسفي ملحد، وهو أشهر مذهب استقر في الآداب الغربية في القرن العشرين. ينظر: الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، ٨٨٨/٢.

(٦) الماركسية: نسبة الى كارل ماركس (ت ١٨٨٣م) وهو مذهب يقوم على الالحاد وأن المادة هي اساس كل شيء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي. الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، ٩١٩/٢.

وبناء عليه؛ فان النصوص الأدبية والإلهية يجب التعاطي معها على حد سواء؛ لأنَّ النظر لا يكون إلى مصدر النص، بل إلى النص نفسه من دون اعتبارات خارجية[1].

ب- مُستقبِل النص. مستقبِل النص في نظرية الهرمنيوطيقا يحتل مكانة مفصلية، من حيث كونه مهماً في فهم النص وتأويله من جهة، وإنه مدخل لتاريخية النص من جهة أخرى، فمن المعلوم أن مستقبل النص هو كائن يعيش في زمان ومكان محدد، وله ظروفه وأحواله المعينة، وله أفقه في فهم النص، ولما كان أفق مستقبل النص متغيراً فإنه من اللازم أن سيكون فهمه متغيراً، هذا من ناحية مستقبل النص، ومن ناحية فهم اللغة ـ بالنسبة لمستقبل النص الذي استقبل بها النص ـ فإنه بحسب نظرية دي سوسير[2] في اللغة من أن اللغة متحركة من حيث الدلالة على المدلولات، وهي غير ممتدة، بل مرتبطة بزمن معين، فلكل مجتمع له زمنه التاريخي المحدد، وله مدلولاته؛ وعليه فلا يلزم من فهم نشأ عن لغة في زمن ما، أن يكون مطابقا لزمن آخر[3].

ج ـ قائل النص: الحديث عن قائل النص يأتي نتيجة لما مر معنا من موضوع النص ومستقبل النص، فحسب النظرية الوجودية في اللغة فإنه يتم مصادرة حق قائل النص وينتهي دوره بمجرد صدور النص منه، فلا عبرة بقصده. ويدعم هذه القضية الاتجاه المادي القائل بان النص يتم تشكله من الواقع، وعليه فلا يوجد نص نقي بهذا الاعتبار، بل كل النصوص متداخلة المنابع كما تنص عليه نظرية التناص[4]، ويكون دور قائل النص هو نسج النص وإبرازه، معتمدا على مخزون هائل من اللغة الموروثة، ثم ينتهي دوره، لينتهي المطاف بهذه النظرية إلى إعلان رولان بارت[5] موت المؤلف، ليفسح المجال لميلاد القارئ[6].

---

(١) ينظر: ظاهرة التأويل، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) دي سوسير: عالم لغويات سويسري، ولد عام ١٨٥٧، من أشهر علماء اللغة في العصر الحديث، ويعد الأب والمؤسس لمدرسة اللسانيات الحديثة، حيث اتجه بتفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، في حين كانت تدرس قبل ذلك دراسة تاريخية، توفي سنة (١٩٣١م). ينظر: ظاهرة التأويل ص ١١٨.

(٣) ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة، ص١٨٧.

(٤) نظرية التناص « تدور في مجملها بإن النص لا ينشأ من رصف كلمات تولد معنى وحيدا، وإنما هو فضاء متعدد الأبعاد تتمازج فيه كتابات متعددة ومتعارضة أحيانا، بما أن النص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافية متعددة، وعمل المؤلف على هذا الاعتبار ما هو إلا مجرد ناسخ يقوم بنسخ النص مستمدا من اللغة التي هي مستودع النصوص . ينظر: ظاهرة التأويل ص ١٠٣.

(٥) رولان بارت، فيلسوف فرنسي ولد عام (١٩١٥م) مهتم بعلم النفس والانثربولوجيا واللسانيات ونظرية المعرفة، أثر في تطور مدارس عديدة كالبنيوية والماركسية وما بعد البنيوية، درس في تركيا ورمانيا ومصر، عمل في مركز البحث الفرنسي وأنجز دراسات عديدة، توفي عام (١٩٨٠م).

(٦) ينظر: ظاهرة التأويل ص١٨٧ ـ ١٨٨؛ دليل الناقد الأدبي ص ٢٤١؛ معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، علوش ص ٢١٥.

المطلب الثالث: الهرمنيوطيقا والنص المقدس.

إن المناهج الغربية - من وجهة نظر أنصارها- التي تستخدمها الهرمنيوطيقا تعمل على مواءمة النص المقدس مع روح العصر، وتمنح رؤية واسعة تمكنهم عن طريقها لاستكشاف مقاصد النص المقدس في ضوء الأفق التاريخي للواقع.

وقد طبق أتباع المدرسة الغربية من أبناء العرب والمسلمين هذه النظرية على نصوص القرآن الكريم، فاعتبروه كائنا حيا تتجدد حياته كلما تجددت قراءته، وإن الموروث من المدونات الفقهية والكلامية والتفسيرية للنصوص الدينية تخضع لعامل الزمان والمكان، وهي تخضع لثقافة ذلك الزمان وبيئته، وهي تتموضع فيه ولا تتسع لغير عصرها، فلكل عصر مفهومه وثقافته وبيئته وعلومه وفنونه وتطوره، وعلى أساسه ينبغي أن توضع المدونات الفقهية والتفسيرية المناسبة للنصوص الدينية، حتى تلبي حاجات الإنسان المختلفة باختلاف الزمكان، وبهذه الطريقة التجديدية في قراءة النص الديني فإنه سيسجل حضوره الفاعل في بناء وإخصاب الحياة الاخلاقية والروحية، وإن رفض هذه القراءة والاعتراض عليها إنما هو ضرب من معاندة التاريخ وتعطيل تدفق المنبع الروحي والاخلاقي للوحي، لذا نجد حسن حنفي مثلا يقول: «مهمة التجديد إذن عملية لا نظرية، وهي المساهمة في البناء النظري للواقع، وذلك بالقضاء على الأفكار الثابتة فيه، والأحكام المسبقة التي لا يمكن أن تكون أساسا نظريا لتغير الواقع، . ... فالتراث لا يحتوي على أنساق نظرية خالصة يهمنا الكشف عنها، بل يحتوي على إمكانيات عملية يكشف عنها المفكر بإعادة تفسيره طبقا لمصلحة الجماهير[1]»

إن نظرة الهرمنيوطيقا الى النص بأنه سجين محاط بالعديد من الأسيجة التفسيرية، التي جعلته حبيس فكرها ونظرتها المحدودة القاصرة، وإن القراءة الجديدة للنصوص الدينية وفق أدوات منهج الهرمنيوطيقا سيمنحها الحرية ويدمجها بالواقع ويحررها من الإغتراب، وتحقق الانسجام بين النص والقارئ، أي: عن طريق هذه القراءة يمكن للقارئ أن يقرأ ذاته في النص؛ لأنه سيرى في النص عقيدة آمن بها، وخبرة عاشاها[2].

فالهرمنيوطيقا -عند أصحابها- تكشف عن الوجوه المتعددة للحقيقة، فلكل شخص قراءته التي يتجلى فيها وجه من وجوه الحقيقة، فهي لا تقف عند حدود الموروث من التفسير فهو متحجر بعصره وزمانه.

---

(١) التراث والتجديد حسن حنفي، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٥، ١٤٢٢/٢٠٠٢م ص ٥٦

(٢) ينظر الهرمنيوطيقا والنفس الديني للعالم، د. عبد الجبار الرفاعي ص ٨-٩.

ومعنى أن تصبح النصوص الدينية المقدسة معاصرة للإنسان؛ وذلك أن في كل نص هامشا حرا مفتوحا للقراءة الجديدة، وهو ما يمنحه إمكانات تخطي المسافات وعبور غربة الزمان وتموضعه في مختلف الأفاق التاريخية، وذلك هو سر أبدية هذه النصوص والذي لولاه لاختفت فور اغترابها عن أفقها التاريخي، فبعد أن ينخرط في التاريخ يمسي فهمه مواكبا لكل مرحلة من مراحل عمره، أي: أنه في المراحل اللاحقة ينتقل الى فضاء فهم غير الفضاء الذي انبثق فيه، يقول حامد نصر أبو زيد[1] : «فمن الطبيعي، بل والضروري، أن يعاد فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية الاجتماعية الأصلية، وإحلال المفاهيم المعاصرة، والأكثر إنسانية وتقدما، مع ثبات مضمون النص. إن الألفاظ القديمة لا تزال حية مستعملة لكنها اكتسبت دلالات مجازية، والإصرار على ردها إلى دلالتها الحرفية القديمة وإحياء المفاهيم التي تصوغها إهدار للنص والواقع معا»[2].

وهذا كله يؤكد أن نظرة الهرمنيوطيقا الى النص بأن قراءته إنما هي قراءة نسبية، بمعنى أن لكل قارئ فهمه وانتماءه للأفق التاريخي الذي يولد فيه، ففي كل محطة ينبثق فهم جديد، أي: أنه لم يعد هناك فهم بشري مطلق للنص يخترق التاريخ ويتعالى على أحوال الإنسان وطبائع العمران، أو لا ترتسم فيه اللوان الزمان والمكان[3].

المطلب الثالث: الهرمنيوطيقيا والنصوص الأدبية.

من المعروف عند نقاد الأدب التقليديين أنهم يركزون على قصد المؤلف في معرفة المعنى، إلا أن هذه الفرضية تعرضت لنظرة جديدة معاكسة لها تماما عند من يقول بأن التركيز في معرفة المعنى يكون على النص، أو على القارئ، أو عليهما معا جميعا، وألغت هذه النظرة الحديثة دور المؤلف وأقصته عن الفهم.

إن هذه النظرة التي ترفض ارتباط معنى النص بقصد المؤلف، هي كذلك ترفض مفهوم محدودية المعنى ومفهوم التأويل الصحيح، بل هي تدعو إلى لا محدودية للمعنى، أو على الأقل نسبيته، تبعا لاختلاف القارئ واختلاف المنهجية التأويلية له[4].

---

(١) نصر أبو زيد، ولد في مصر سنة (١٩٤٣م)، تخرج من كلية الآداب قسم اللغة العربية سنة (١٩٧٢م)، نال الماجستير وكانت رسالته المجاز في القران عند المعتزلة، وحصل على الدكتوراه سنة (١٩٧٩م)، وكانت أطروحته تأويل القران عند ابن عربي، وله العديد من الأبحاث، وقد حكم عليه بالردة سنة (١٩٩٥م) بسبب شطحاته، مما اضطره إلى مغادرة مصر إلى فرنسا إلى أن استقر به الحال في بيروت. ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة ٥٣.

(٢) نقد الخطاب الديني ص ١٣٣.

(٣) الهرمنيوطيقا والنفس الديني للعالم، د. عبد الجبار الرفاعي ص ٨-١٠(بتصرف يسير)

(٤) ينظر: دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ص ٩٣ - ٩٤.

فالقراءة الجديدة للنص الأدبي وهي ما تعرف بتاريخانية النص تعتمد في ركائزها على اتجاهات نقدية ماركسية وابحاث انتروبولوجية وغيرها وخلاصتها: أن النص الأدبي ينبغي أن يقرأ في إطاره التاريخي والثقافي، حيث تؤثر فيه الأيدلوجيا[1] وصراع القوى الاجتماعية في تشكله، وباعتماد التاريخانية كذلك على نظرية التقويض(التفكيك) نجدها تصرح بأن الدلالات اللفظية تتغير حسب المتغيرات التاريخية والثقافية. ومن ثَمَّ فإن التاريخانية يتساوى عندها النص الأدبي مع بقية النصوص الدينية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية في محاور وهي:

أولا: النص الأدبي هو جزء من سياق تاريخي يتفاعل مع مكونات الثقافة الأخرى من مؤسسات ومعتقدات وغيرها، فبلتالي هو ليس نسقا متجانسا من الحقائق المعتمدة في تفسير النص الأدبي.

ثانيا: إن الطبيعة الإنسانية المزعومة بين المؤلف والقارئ وشخصيات العمل الأدبي ما هي إلا وهم إيدلوجي أنتجته الثقافة الرأسمالية.

ثالثا: لا توجد إمكانية لتقييم العمل الأدبي؛ لأن القارئ كالمؤلف فهو معرض للمؤثرات الأيدلوجية في عصره، فالقارئ إما أن يتفق آيدلوجيا مع المؤلف وبالأتي سيمتدح العمل الأدبي، ويصفه بالموضوعية والفنية والعالمية والديمومة، وإما أن يختلف معه وعندها سيسقط فرضياته على ذلك النص[2].

لذلك يعد (شلاير ماخر) الفيلسوف والعالم الديني مؤسس الهرمنيوطيقا الحديثة، والذي يتلخص بكونها فهم الفهم، أو فن الفهم، أو معرفة الفهم، أو قراءة القراءة، فهي تفسر وتحلل ما يحدث للقارئ لحظة فهم النص، فهي تحلل طبيعة تشكل المعرفة لدى القارئ حين يقرأ النص، ومع كل من (مارتن هيدغر) و(هانس جورج غادامير) دخلت الهرمنيوطيقا بطابعها الفلسفي النقد الأدبي بثوب جديد، خالفت فيه الكثير من المناهج المعروفة فيه. [3]

المطلب الرابع: الهرمنيوطيقيا والتفسير القانوني.

مدار القانون لا تصل الى مستويات الهرمنيوطيقيا بما تحويه من الاعتماد على المكون الذاتي المفرط، وذوبان المعايير في عملية تأويل النصوص وتفسيرها، وإن أغلب النقاشات بين القانونين الغربيين يدور حول نصيَّة القانون وغرضيَّته، فالنصيَّون يعطون أولوية التفسير لنص القانون الحرفي، بينما الغرضيَّون

(١) الأيدلوجيا، تطلق على التحليل والمناقشة لأفكار مجردة لا تطابق الواقع. المعجم الفلسفي ص٣٩.

(٢) ينظر: دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ص ٨٠ - ٨١

(٣) ينظر: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد ص ١٦- العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد إدريس الطعان ص ٦٧٨

ينظرون الى الغرض من تشريع القانون وإصداره[1].

إن طبيعة القانون تأنف من ترك نصوصه مطلقة، أو متروكة لتفسيرات متعددة ومتجددة؛ وإلا لما الغيت كثيرا من القوانين واستبدالها بإخرى؛ إلا لمراعاة الألفاظ التي تصاغ بها النصوص القانونية باعتبار أن الالفاظ هي قوالب المعاني، لكن قد وجد من بعض الأكاديمين[2] من طرح مقترحات يدعو فيها الى تفسير القانون بأدوات المناهج المعاصرة من مفاهيم النقد الحداثي، والما بعد حداثي، ومناهج التفسير الهرمنيوطيقي، ولكن عمليا عند تطبيق القانون في المحاكم الغربية لا تتعامل مع هذه النظريات الحداثية بجدية حتى أن بعضهم يقول: (القانون عكس الأدب، فوظيفة الأدب أن يفتح ذهن القارئ للتفسير الذاتي، بينما وظيفة القانون عكس ذلك، فالتشريعات والسوابق القضائية تسعى لضبط الأنشطة، ولذلك فإن التشريعات يجب أن تخضع لتفسير محدد ومعقول، إذا أريد لها تحقيق وظيفتها، وأية محام ممارس يعرف ذلك.)[3]

المطلب الخامس: تقويم التأويل الهرمنيوطيقي[4].

بعد الاطلاع على فكرة الهرمنيوطيقا أو نظرية التأويل الغربية اتضح أن فيها العديد من السلبيات المنحرفة عن مفهوم النظرة الإسلامية العامة في فهم النصوص، وذلك بالاعتماد على قصد صاحب النص، ومن ثم محاولة تفسير كلامه وتوضيحه بآليات الفهم المعروفة من معرفة أصول اللغة، وأصول الفقه، ومقاصد الشريعة العامة، وكان الخلاف في استنباط الاحكام لا في أصولها، إلا من شذ وانحرف عن تلك الأصول وخالف جمهور الأمة، وعلى ذلك سارت مختلف المذاهب والفرق العقدية والكلامية، فضلا عن الفقهية، وتتضح سلبيات التأويل الهرمنيوطيقي بالأتي:

١. إن التأويل الهيرومنطيقي بهذه الصورة التي مضى ذكرها هو لا يمثل مدرسة محددة ومعينة، ولا هو منهج تأويلي له صفاته وقواعده الخاصة، ولا يوجد من يطلق عليه صفة الهيرومنطيقية؛ وإنما هي نظرية فحسب[5].

---

(١) ينظر: التأويل الحداثي للتراث، ص ٣٤.

(٢) من هؤلاء الأكاديمي الأمريكي ستانلي فيش، ينظر التأويل الحداثي للتراث، ص ٣٤.

(٣) التأويل الحداثي للتراث، ص ٣٤- ٣٥.

(٤) ينظر: التأويل الحداثي للتراث، ص ٣٨ -٣٩، القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير د. محمد محمود كالو ص٦٤.

(٥) ينظر: دليل الناقد الأدبي، ص ٨٨.

٢. إن إنعكاس هذه النظرية الغربية على من تبناها من مفكري النقد العربي لم يكن إلا في توظيف آيدلوجي.

٣. إن فتح باب التأويل بهذه الصورة الغربية يفتح الباب أمام كل محاولة تأويلية، ولكل أحد وبلا دليل، بل بتعسف وبباطنية ظاهرة، وهذا فيه هدم للدين وتصوراته وثوابته بالكلية.

٤. إن فحوى هذه النظرية هو نسبية المعرفة، فلا معارف ثابتة، ولا مرتكزات ولا فهم ثابت للنص؛ بل هي تدعو إلى فوضى في الأفهام، وإطلاقها بلا ضوابط ولا حدود؛ فهي متروكة للقارئ دون النظر إلى قصد المؤلف وقت انبثاق النص، وإن كان هناك جهد لاستخراج قصد المؤلف فهو محصور في زمنه ولمعاصريه أي: تحيين الفهم والمعنى.

٥. إن الدعوة الى تطبيق نظرية التأويل الغربية في تفسير الشريعة والخضوع لها في مقرراتها إنما هي دعوات ساذجة وغير ناضجة؛ حيث أن هذه النظريات الجوفاء لم تطبق حتى في عقر دارها، فالكنيسة مثلا لم تعتمد الهرطقة الهرمنيوطيقية في تفسير كتابهم المحرف، ولا في تشريعاتهم الخاصة بهم، فكيف يراد من المسلمين تطبيقها على القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

٦. إن عامة الباحثين الغربيين يرون أن هذه النظرية زياً أو موضة سرعان ما تتلاشى، فكيف يراد استبدالها بعلوم الإسلام الاصيلة والمنضبطة بالقواعد والأصول من علمي الاصول وعلم البلاغة.

٧. إن علوم الاسلام لم تنشأ وليدة اللحظة، ولا هي معطيات شخصية يقررها شخص بعينه؛ وإنما هي منظومة من القواعد المقررة والتي خضعت لدراسات معمقة، وفحص ونقاش وأخذ ورد عبر قرون متطاولة من الزمن، حتى أصبحت قواعد مقررة، ومناهج معتمدة، وأصولا ثابتة، فأصول الفقه واستنباط الأحكام وتفسير النصوص الشرعية ليست متروكة لكل من هبَّ ودبَّ، وهي ليست عبثا من القول يتطاول فيه الجهلاء بأقوالهم؛ وإنما هي قواعد محكمة ومقررات منضبطة، بعكس النظريات الغربية التي هي أفكار لأشخاص لم يقع عليها اتفاق جمهورهم، فضلا عن الاجماع على صحة مقرراتها من العالم الغربي، فكيف يراد استبدالها بأصولنا الاسلامية المجمع عليها؟

٨. إن محاولة أنسنة النص المقدس باعتباره كأي نص بشري جاء من ردة فعل الحضارة الملحدة، فلم يَعُد الناس يحترمون القيم والمثل العليا، ولم يبق شيء مقدس في أبجدياتهم، والتي تمثل مرتبة أعلى منهم باعتبارها تحوي على أسرار لا يمكن الوصول اليها، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى بدأ العالم يفقد بعده الإنساني[1] مع إعمال مناهج النقد الغربية الحديثة، بما يعرف بالمنهج الفيلولوجي

(١) ينظر: الحداثة وما بعد الحداثة عبدالوهاب المسيري وفتحي التريكي ص ١٤٦

(اللغوي) والابستمولوجي[1] (المعرفي) على النص المقدس عموما ومنها القرآن الكريم، وخرجوا بما تواضعوا عليه (تاريخانية القرآن) أي أنه عمل بشري أفرزته وقائع التاريخ[2].

٩. لازم قول قراءة النص الشرعي قراءة جديدة مختلفة في الفهم والمضمون أن تكون القرون المفضلة التي وردت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (خَيْرُ أُمَّتِى الْقَرْنُ الَّذِينَ يَلُونِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[3] أنها ليست خير القرون، وأن الخيرية ستكون في هذه المناهج الغربية، وهذه خرافة وباطل من القول لا يمكن أن يقول بها عاقل.[4]

(١) الابستمولوجي لفظ مركب من لفظين وتعني نظرية العلوم او فلسفة العلوم وتعنى بدراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها دراسة انتقادية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية. ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا ١/ ٣٣

(٢) ينظر: مآلات القول بخلق القران، د. ناصر بن يحيى الحنيني ص ٢٩.

(٣) اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، برقم: ٦٦٣٢.

(٤) ينظر: مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص ٣٢٦

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فان في خاتمة هذا البحث أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها:

١. إن الهرمنيوطيقا هي نظرية غربية وتعني تأويل النصوص.

٢. حسب نظرية التأويل الغربية لا ثبات لمعنى النص بل هو متغير بتغير الزمان والمكان.

٣. نظرية الهرمنيوطيقا يراد منها أن تعمل في كافة مجالات الحياة الإنسانية الأدبية والاجتماعية والقانونية فضلا عن الدين.

٤. باعتبار نظرية الهرمنيوطيقا مصادمة لمبادئ الدين فانه والحال هذه لا يمكن بناء تكامل معرفي يستفاد منه في فهم الدين، لأنها بعيدة كل البعد، بل هي على النقيض تماما من تصورات الدين، ويراد منها هدم الدين بهدم ثوابته.

٥. في النظرية الإسلامية يكون اعتماد فهم النصوص على أدوات الفهم الشرعية واللغوية، على عكس النظرية التأويلية، التي لا تجعل ثبات في معاني النصوص بل هي متغيرة بتغير الزمان والمكان.

التوصيات: عمل مقرر دراسي في قسم الدراسات العليا تخصص أصول الدين، لدراسة النظريات الغربية الناشطة في تأويل النصوص، والاطلاع عليها والمساهمة في نقض شبهاتها.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله ويلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

المصادر

١. إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، الناشر المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، المغرب العربي، ط١، ٢٠١٤

٢. تاريخ الفلسفة إميل برهييه، الناشر دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٣. التأويل الحداثي للتراث التقنيات والاستمدادات، إبراهيم بن عمر السكران، دار الحضارة، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٤. التراث والتجديد حسن حنفي، بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٥، ١٤٢٢/٢٠٠٢م

٥. الحداثة وما بعد الحداثة عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الناشر: دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٣١ه- ٢٠١٠م

٦. دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي، ط٣، ٢٠٠٢م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الرباط المغرب العربي،

٧. ظاهرة التأول الحديثة في الفكر الغربي، د. خالد بن عبد العزيز السيف، مركز التأصيل للدراسات والبحوث.

٨. العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد إدريس الطعان، الناشر: مكتبة دار ابن حزم للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٢٨ه - ٢٠٠٧م.

٩. فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمير، د. عادل مصطفى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

١٠. القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير د. محمد محمود كالو.

١١. مآلات الخطاب المدني، إبراهيم بن عمر السكران، الناشر: مركز تفكر للبحوث والدراسات، ط٢، ١٤٣٨ه - ٢٠١٧م.

١٢. مآلات القول بخلق القران، د. ناصر بن يحيى الحنيني.

١٣. المعجم الفلسفي، الصادر عن مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٤. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢م.

١٥. المعجم الفلسفي، مراد وهبة، الناشر دار قباء الحديث، القاهرة، ط٥، سنة ٢٠٠٧م.

١٦. من النص إلى الفعل، بول ريكور ترجمة محمد برادة- حسان بورقية، الناشر: عين للراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

١٧. مناهج النقد الأدبي رؤية إسلامية، د. وليد قصاب، الناشر دار الفكر،

١٨. الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة، إشراف د مانع بن حماد الجهني، الناشر دار الندوة العالمية للطباعة، الرياض، ط٥، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٩. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري

٢٠. الهرمنيوطيقا محمد صلاح الخالدي ط١، سنة ٢٠١٨م.

٢١. الهرمنيوطيقا والنفس الديني للعالم، د. عبد الجبار الرفاعي، الناشر مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط١، ٢٠١٧م.